الفصل السابع عشر
مكتبات أوروبا الجامعية وتطورها حتى أوائل القرن العشرين

كانت الجامعات قد توطد مركزها في أوروبا مع بدايات القرن السادس عشر وأصبحت الجامعة مؤسسة تربوية هامة ذات جذور في التربة الأوروبية. وكانت الجامعات الأوروبية قوة ثقافية كبرى ولها نفوذ ثقافي قوي وعميق في البلاد التي وجدت فيها، وكانت الجسر الذي عبرت عن طريقه أوروبا من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة. وقد تخصصت بعض الجامعات بالإلهيات، على حين اهتمت جامعات أخرى بالطب والحقوق إلى جانب اهتمامها بالإلهيات. وقد عدت، في جميع الحالات، العلوم الإنسانية مجرد مساعد للاختصاصات المذكورة أعلاه وليست هدفاً في حد ذاتها. كذلك اختلف الاهتمام بالمكتبات من جامعة إلى جامعة. ومهما يكن تنظيم أو نوع المكتبة الجامعية. فقد اعتمدت أوائل الجامعات اعتماداً كبيراً على محال بيع الكتب وعلى تجار الكتب ومؤجريها، تلك المحال التي تمركزت حول الجامعات وتحلقت حول مختلف الكليات.

ولقد ازداد حجم المكتبات الجامعية زيادة كبرى بعد سنة ١٥٠٠م، وذلك بسبب اختراع الطباعة الذي جعل ثمن الكتاب أرخص بكثير من ذي قبل وأنقص مسؤوليات المكتبات الجامعية؛ حيث أصبح بإمكان أي طالب أن يشتري كتبه لنفسه وأن يحتفظ بها. كما وأن إغلاق الأديرة وحل الأنظمة الرهبانية ومصادرة كتبها في جميع أرجاء اوروبا بدءاً من القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر أدى إلى زيادة رصيد المكتبات الجامعية زيادة كبرى من المخطوطات والمطبوعات. ذلك أن قسماً مهماً جداً من هذه المواد الكتبية المصادرة وجد طريقه إلى مكتبات الجامعات، ووضعت في مكتبات عمر مستمر وبحث عميق حيث الفرصة متوفرة لاستعمالها والاستفادة منها.

المكتبات الجامعية في فرنسا :

لقد كانت مكتبة كلية السوربون في جامعة باريس أوسع المكتبات الملحقة بكليات

جامعة باريس وأهمها، وكان يقدر عدد كتبها بحوالي ٢٥٠٠ مجلد أغلبها مخطوطات في أواخر القرن الخامس عشر. ولقد نمت مجموعات كتبها عبر العصور ببطء وثبات وانعكس فيها ما أصاب الجامعة من تقدم أو اضطهاد.

وقد وصل عدد كتبها سنة ١٧٨٩م عند نشوب الثورة الفرنسية حوالي ٢٥ ألف مطبوع وألفي مخطوط. وقد اغلقت الثورة جامعة باريس سنة ١٧٩٢م وصادرت كتبها ووزعتها على المكتبة الأهلية وبقية المكتبات العامة، وظلت مغلقة حتى انتهاء حروب نابليون سنة ١٨١٥م. وقد أعيد فتح الجامعة في تلك السنة وأسس معها مكتبة جديدة ألحقت بكلية السوربون. وقد تغير اسمها سنة ١٨٦١م ليصبح مكتبة الجامعة. ومنذ ذلك الزمن أصبح نموها ثابتاً مطرداً. فقد أصبح عدد الكتب الموجودة في جميع مكتبات الجامعة أواخر القرن التاسع عشر قرابة المليون. وقد انتقلت مكتبة كلية السوربون إلى مبنى جديد سنة ١٨٩٧م وألحق بها قاعة مطالعة تتسع لـ ٣٠٠ شخص.

ويوجد في جامعة باريس ست مكتبات رئيسية. فبالإضافة إلى مكتبة السوربون التي تستخدم الآن كمكتبة لكليتي الآداب والعلوم، هناك مكتبات كليات الحقوق والطب والصيدلة ومكتبة سان جنيفيف ومكتبة اورسي. يعود تاريخ مكتبة كلية الطب إلى القرن الرابع عشر وبلغ عدد كتبها أواخر القرن الخامس عشر حوالي ١١٠٠ مجلد واستخدمت المكتبة سنة ١٥٠٩م طريقة سلسلة الكتب الأكثر أهمية والأكثر استعمالاً وربطها بالسلاسل إلى الجدار حتى لا يمكن إخراجها من قاعة المكتبة.

وظلت هذه الطريقة مستعملة حتى أوائل القرن التاسع عشر. وقد بلغ عدد كتبها سنة ١٩٠٠م حوالي ١٨٠ ألف مجلد وعدت واحدة من أعظم مكتبات كليات الطب في أوروبا. وتأسست مكتبة كلية الحقوق سنة ١٧٧٢م ووصل عدد كتبها سنة ١٩٠٠م إلى أكثر من ٨٠ ألف مجلد. هذا وإن مكتبة سان جنيفيف هي أقدم مكتبة من مكتبات جامعة باريس إذ يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر. وهي أصلاً مكتبة كنيسة سان جنيفيف، وكانت حوالي سنة ١٧١٠م مكتبة نصف عامة حيث وصل عدد كتبها إلى ٤٠ ألف مجلد وتسمح لجميع الرجال الشرفاء بارتيادها. وقد نمت مجموعاتها حتى وصلت سنة ١٨٦٠م إلى أكثر من ١٦٠ ألف مطبوع وخمسة آلاف مخطوط وكانت تعدّ مكتبة حكومية وتديرها الحكومة مباشرة. وقد ضمت في الثلاثينات من هذا القرن إلى جامعة باريس حيث أصبحت مجموعة كتبها الغنية بالتاريخ والعلوم الاجتماعية أثمن ما تمتلكه

جامعة باريس من الكتب.

ويوجد في باريس، بجانب جامعة باريس، أكثر من ثلاثين مكتبة جامعية وكلية رئيسية ومعهد عال. وهناك بضع مئات من الجامعات منتشرة في أرجاء فرنسا. ويعود تاريخ الغالبية العظمى من المؤسسات التعليمية الفرنسية إلى القرن التاسع عشر وبخاصة بعد سنة ١٨٧٠ في عهد الجمهورية الثالثة. وتختلف مكتباتها بحجمها وكفايتها. وقد بلغ عدد كتب مكتبة جامعة بيزانسون ٣٠٠ ألف مجلد، ومكتبة جامعة كان ٦٠٠ مجلد وهكذا.

ولقد تضررت مكتبات جامعات شمالي وشرقي فرنسا إبان الحرب العالمية الأولى، كما تضررت مكتبات جامعات شمالي غربي فرنسا إبان الحرب العالمية الثانية، بل دمر بعضها كلياً مثل مكتبة جامعة كان، ولكن الأضرار أزيلت وعمرت المكتبات بعد الحرب وتمتعت مكتبات الجامعات في فرنسا بفترة نمو متزايد ومطرد منذ الحرب العالمية الثانية. وقد وضعت جميع الجامعات ومكتباتها تحت إدارة وزارة التعليم العالي. وهي تعاني المشكلات المعروفة من حيث ازدحام المكان وعدم توافر أماكن جيدة ونقص اليد العاملة الفنية المتخصصة. وهي تسعى جاهدة لحل هذه المشكلات. وعلى الرغم من أن أغلب هذه المكتبات يجد صعوبة في الحصول على أحدث المطبوعات، ولا سيما بعد أن ازداد عدد هذه المطبوعات زيادة هائلة، إلا أن محتويات هذه المكتبات من المخطوطات وأوائل المطبوعات ومواد البحث التاريخي يجعلها ذات قيمة لا تثمن للدارسين في حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية.

تطور وتاريخ المكتبات الجامعية في إنكلترا :

إن تاريخ مكتبات الجامعات في إنكلترا يقع في فصلين كبيرين : الأول الجامعات القديمة والثاني الجامعات الحديثة.

هذا، وبشكل عام وعملي، لم يكن في انكلترا حتى مطالع القرن التاسع عشر سوى جامعة اكسفورد وكمبردج، وهما اللتان سيطرتا على التعليم العالي في انكلترا. وعندما أهل القرن السادس عشر كانت عدة مئات من السنين قد انقضت منذ تأسيس جامعة اكسفورد ومن بعدها كمبردج. ولقد أعاقت الاضطرابات الدينية التي حدثت في إنكلترا في القرن السادس عشر تطور الحياة الجامعية بشكل كبير. ذلك أن هنري الثامن حل الأديرة سنة ١٥٣٧م وصادر كتبها واضطهد الكتب وأتلفها بشكل لا مثيل له. ثم أصدر

أمره بمراقبة مكتبات الجامعات مراقبة صارمة وصودرت كتبها وكثير منها بيع على أنه أوراق للصر.

ثم أتى بعد هنري الثامن ادوارد السادس الذي أمر بمصادرة محتويات مكتبات الجامعات، وذلك في أواسط القرن؛ فنفذت أوامره وصودرت محتويات مكتبات جامعتي اكسفورد وكمبردج واتلفت اتلافاً شبه تام، حتى أن رفوف المكتبات نزعت وبيعت ، ولم يبق في انكلترا من مكتبات إلا تلك الموجودة في الكاتدرائيات القديمة. ولقد شاهدت نهاية القرن السادس عشر إعادة بناء التقاليد المكتبية في جامعة اكسفورد. تكشف هذه الحادثة والحوادث اللاحقة كشفاً تاماً عن أثر الصراعات المعاصرة، وحيوية التطبيقات المكتبية والتقاليد المكتبية في الجامعات الإنكليزية والتي لها جذور موغلة في القدم.

ويعود الفضل في إعادة بناء مكتبة جامعة اكسفورد إلى سير توماس بودلي (١٥٤٥-١٦١٣م).

كان بودلي رحالة ومثقفاً ويعرف عدداً من اللغات الأجنبية. وكان أستاذاً في كلية ميرتون في اكسفورد. وفي سنة ١٥٩٨م عرض بودلي أن يعيد تأسيس المكتبة الجامعية فقبل اقتراحه بسرور.

وقد بدأ عمله بتزويد المكتبة بشيئين أساسيين : المخازن والكتب. وقد تمكن أن يجمع للمكتبة تبرعات نقدية من كثير من المحسنين لشراء الكتب. كما وأن كثيراً من المثقفين تبرعوا لها بأعداد وفيرة من الكتب. وكان نصف الكتب التي دبرها للمكتبة موضوعها الإلهيات والطابع البروتستانتي هو الغالب عليها. وقد وصل عدد الكتب الموجودة في المكتبة خلال ست سنوات من إشراف بودلي عليها ٦٠٠٠ مجلد أغلبها هدايا. وفي عهده صدر أول فهرس مطبوع للمكتبة. وقبل وفاة بودلي سنة ١٦١٣م أوصى للمكتبة بهبات أكثر. وبلغ عدد كتب المكتبة سنة ١٦٢٠م ١٦ ألف مجلد. وسميت المكتبة منذ ذلك الحين باسم «المكتبة البودلية» نسبة إلى بودلي واعترافاً بفضله في وجودها وتغذيتها. ولم تكن مفتوحة إلا لعدد محدود جداً من الرواد الذين هم من طلاب الدراسات العليا.

وكانت أغلب الكتب مسلسلة، أما الكتب غير المسلسلة فقد كانت موضوعة في خزائن مقفلة. وقد وضع بودلي بنفسه قواعد تسيير المكتبة وأمينها، ويبدو أنه كان ينظر إلى أمين المكتبة على أنه مساعد للباحثين قادر على أن يزودهم بما يريدونه وأن عليه أن يحمي

الكتب من الإنسان ومن غيره.

وقد انتقلت المكتبة البودلية سنة ١٦١٢م إلى مبنى جديد مستقل، كذلك أوجد لجميع الكليات مكتبات ملحقة بها، وبلغ عدد كتب المكتبة سنة ١٧٠٠م ٣٠ ألف مجلد، وقد تلقت المكتبة عدداً من الهدايا الثمينة خلال القرن السابع عشر وما بعده، منها هدية كبير الأساقفة لود المؤلفة من ١٣٠٠ مخطوط ثمين ، ومنها هدية من المحامي جان سيلدن ومقدارها ٨ آلاف كتاب. وفي سنة ١٧١٤م وقف الطبيب رد كليف مجموعة كتبه الخاصة على جامعة اكسفورد. وهي مكتبة طبية علمية، مع بناء خاص بها، وقد أصبحت هذه المكتبة جزءاً من مكتبة اكسفورد المركزية في منتصف القرن التاسع عشر .

ولقد توسعت المكتبة توسعاً ملحوظاً عبر السنوات وأضيف إليها أبنية كثيرة وتضاعف عدد كتبها ست مرات في الفترة التي انقضت بين حروب نابليون والحرب العالمية الأولى . ووصل عدد كتبها سنة ١٩٠٠م إلى أكثر من ٨٠٠ ألف مطبوع و٤١ ألف مخطوط و١٨ ألف وثيقة وملف ومرسوم تجسد تقاليد انكلترا. ولم تتضرر المكتبة خلال الحرب العالمية الأولى ولكنها أصيبت بأضرار جسيمة خلال الحرب العالمية الثانية.

وإن وضع مكتبة جامعة اكسفورد في السبعينات من هذا القرن يوضح المستوى الرفيع الذي بلغه تنظيم مكتبة جامعية، هذا على الرغم من أنه ليس نموذجياً. وتضم المكتبة بين جنباتها المكتبة البودلية التي هي مكتبة مصدرية ومفتوحة للجميع، وأضيف إليها مكتبة ردكليف ومكتبة المعهد الهندي : إلى جانب اثنتي عشرة مكتبة أخرى بما فيها مكتبات الكليات، ويبلغ مجموع ما فيها من الكتب أكثر من ستة ملايين كتاب وهي تشكل مركزاً من أهم مراكز البحث في جميع أرجاء العالم.

وعلى الرغم من أن مصير مكتبات جامعة كمبردج كان أفضل من مثيلاتها في جامعة اكسفورد خلال القرن السادس عشر، إلا أن المكتبة لم تمتلك سنة ١٥٨٢م سوى ٢٠٠ مطبوع و١٥٠ مخطوط.

ولبثت المكتبة تتعثر في سيرها عبر السنين ولم يقيض لها محسن من طراز بودلي يأخذ بيدها. ومع ذلك فقد حصل بعض التقدم ولا سيما عندما أصبح مشرفاً على المكتبة ويلوك سنة ١٦٢٩م. فقد بث فيها روحاً جديدة ودبر لها عدداً من المنح والهدايا في شكل كتب نادرة ومخطوطات ثمينة شرقية. فقد أضيف إلى المكتبة سنة ١٦٤٨ مجموعة ثمينة جداً

من الكتب؛ حوالي ١٠٠٠ كتاب وتسمى مجموعة لامبث. كذلك أضيف إليها مجموعة هولد سوورث التي حوت ١٠٩٥ مطبوعاً و١٨٦ مخطوطاً كلها كتب نادرة. وهناك مجموعات كتبية كثيرة أتتها من هنا وهناك. ولكن ظلت إدارة المكتبة ضعيفة وعاجزة حتى القرن الثامن عشر إذ دبت فيها روح جديدة تنظيمية. وصدر سنة ١٧٠٩م قانون الإيداع الذي جعل مكتبة كمبردج من بين المكتبات التي يشملها قانون الإيداع. كذلك استلمت هدية ثمينة جداً من الكتب من الملك جورج الأول سنة ١٧١٥م ويبلغ عدد كتبها ٣٠ ألف مجلد. وإن تاريخ المكتبة خلال القرن التاسع عشر هو تاريخ بروزها التدريجي كمعهد مركزي وحيوي يخدم الجامعة كلها في مجال البحث والدرس. وقد وصل عدد كتبها سنة ١٩٠٠م المليون كتاب.

واستمر تقدمها في القرن العشرين وبني لها بناء جديد في الثلاثينات من هذا القرن. وأصبحت مكتبة مفتوحة الأرفف ويقدر عدد كتبها الآن بحوالي ٣ ملايين كتاب مطبوع و١٥ ألف مخطوط. والقسم الأعظم من كتبها مفتوح الأرفف. وهي في أساسها مكتبة بحث ولذا فهي لا تهتم بالدراسات على مستوى الكليات لأن ذلك متروك لمكتبات الكليات. ولقد نمت مكتبات الكليات بشكل ثابت ملحوظ وكثير منها لها أبنية مستقلة.

ولقد مارست الجامعتان اكسفورد وكمبردج رقابة على التعليم العالي في انكلترا عبر العصور وظل الوضع هكذا حتى القرن التاسع عشر. فقد تأسست جامعة درهام سنة ١٨٣٢م ولندن ١٨٣٦م وليفربول ح١٨٨٧م. ولم تكن حالة أغلب الجامعات الجديدة بعد الحرب العالمية الأولى مرضية إطلاقاً؛ وكل مكتباتها كانت تشكو من الاكتظاظ وضيق المكان وقلة المال وعدم كفاية المتخصصين وقلة الكتب. وأغلبها تضرر خلال الحرب العالمية الثانية. وقد شاهدت فترة ما بعد الحرب تقدماً ملحوظاً في كل شيء يتعلق بالمكتبات الجامعية. وقد انشئت أبنية جديدة وحديثة لتكون مكتبة مركزية في عدد من جامعات إنكلترا، كما حدث لجامعة كمبردج وجامعة ليدز وجامعة لندن وجامعة يورك. وكلها أبنية صممت لتكون مكتبة نموذجية على أحداث طراز.

تطور المكتبات الجامعية في ألمانيا :

تأسس في ألمانيا عدد من الجامعات مع مكتباتها قبل سنة ١٥٠٠م، مثل جامعات كولونيا وايرفورت وهيدلبرغ ولايبزيغ وميونيخ. كذلك أسس عدد آخر من الجامعات مع مكتباتها

في القرن السادس عشر مثل جامعة بينا وماربورغ وغيرها. وقد بدأت هذه المكتبات بداية متواضعة ، ثم رفدتها مكتبات الكليات التي ألحقت بالجامعة الأم . وقد توسعت هذه المكتبات بما انضاف إلى مجموعاتها من الكتب التي صودرت من الأديرة المنحلة التي أغلقت آنذاك. ولقد كانت الحروب الدينية التي نشبت في ألمانيا خلال القرن السادس عشر وما تبعها من ثورات اجتماعية كثورات الفلاحين كارثة على القسم الأكبر من هذه المكتبات وكتبها. وقد شاهد القرن السابع عشر انفجار حرب الثلاثين عاماً في ألمانيا (١٦١٨–١٦٤٨م)، وهي حرب أهلية مدمرة دمرت كل شيء ووصلت مكتبات الجامعات في هذا القرن إلى نقطة منخفضة في سلم تطورها. ولقد شاهدت نهاية القرن وبداية القرن الثامن عشر نهضة مكتبية في ألمانيا وتحسنت شروط المكتبات بشكل عام. ويعود الفضل في هذه النهضة إلى لايبنتز Leibeniz الذي يوصف بأنه قائد عصر الأنوار في المانيا وواضع المبادئ الأساسية التي تبنى عليها واجبات أمين المكتبة. فقد أحب لايبنتز الكتب منذ نعومة أظفاره وحاول عمل حصر بيبليوغرافي للمعرفة الانسانية الموجودة في الكتب. وارتحل لايبنتز إلى فرنسا وتأثر بأفكار نوديه. ولما رجع إلى ألمانيا عين أميناً لمكتبتها ومؤرخاً بنفس الوقت، ثم انتقل إلى مكتبة وولفبنتول حيث عمل على زيادة مجموعات كتبها بشكل ملحوظ. وقد وضع المبادئ التي يجب أن تحكم تطور مكتبة بحث علمية كبرى وهي مبادئ لا تزال مفيدة حتى الآن.

وقد برزت في القرن الثامن عشر عدة جامعات في ألمانيا، لعل أهمها جامعة غوتنفن التي أصبحت أشهر جامعة في ألمانيا في أواخر القرن الثامن عشر. وقد زودت منذ البدء بمكتبة بحث كبرى وحاولت تطبيق مبادئ لايبنتز التي نادى بها. وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت شهرة مكتبة جامعة غوتنغن على كل لسان. ولقد كان من حسن حظها أن جمعت مجموعة كاملة من العظماء من بينهم أذكى العقول من أمثال هردر وغوتيه وفون همبولدت مما جعل كثيراً من الناس يشيعون ان نجاح هؤلاء العلماء إنما يعود بالدرجة الأولى إلى مكتبة الجامعة فقط. وبلغ عدد كتبها آنذاك ١٥٠ ألف مجلد.

ولقد ظلت مكتبات الجامعات ضعيفة إبان فترة الثورة الفرنسية وحروب نابليون. ولكنها لم تلبث أن نهضت من كبوتها وتابعت تقدمها بشكل ملحوظ في بقية القرن التاسع عشر. فقد شاهد هذا القرن نمواً مطرداً ثابتاً في عدد كتب المكتبات المركزية في الجامعات الألمانية، كما شاهد نمو عدد الكتب في جميع مكتبات الكليات والمعاهد الملحقة

بالجامعات . فقد بلغ عدد مجموعات الكتب في مكتبات كل من جامعة غوتنغن وهيدلبرغ وبريسلاو وستراسبورغ مقداراً يتراوح بين ٣٠٠ ألف و ٤٠٠ الف مجلد وذلك في حدود سنة ١٨٧٠م، وأصبحت تعد من أفضل مكتبات البحث في العالم. ولقد تابعت مكتبات الجامعات الألمانية تقدمها السريع بعد قيام الاتحاد الألماني وقيام الإمبراطورية الألمانية الثانية سنة ١٨٧١م وبني لأغلبها أبنية مستقلة حتى تستطيع استيعاب الأعداد المتزايدة من الكتب.

أما القرن العشرون، فقد كان عصر تقدم عظيم في حقل المكتبات الجامعية في ألمانيا، كما أنه كان في نفس الوقت عصر مصائب وكوارث كبرى أصيبت بها هذه المكتبات.

وعلى الرغم من أن مكتبات الجامعات الألمانية لم يصبها ضرر مادي خلال الحرب العالمية الأولى، إلا أنها عانت الكثير بسبب نقص الموظفين الفنيين والأموال والمنشورات الأجنبية. ولقد قامت في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى نهضة مكتبية علمية وازدهرت بعض المكتبات بعض الازدهار، ولكن أزمة ١٩٢٩م والحكم النازي وأساليب الرقابة والقمع التي مارسها ذلك الحكم؛ كل ذلك أعاق ذلك الازدهار وقضى عليه.

وقد تسببت الحرب العالمية الثانية بحدوث أضرار بليغة لحقت المكتبات الجامعية في ألمانيا. فقد تسببت غارات الحلفاء الجوية في تدمير وخراب عدد كبير من مكتبات الجامعات الألمانية. فقد دمر بعضها تدميراً تاماً على حين تضرر البعض الآخر أضراراً بليغة. فقد تلف في هامبورغ وحدها من جراء الغارات الجوية أكثر من ٣٠٠ ألف مجلد وهو رقم يمثل كل ما تمتلكه مكتبة جامعة هامبورغ من كتب تقريباً . والشيء نفسه يقال عن أغلب مكتبات الجامعات.

ولقد قسمت ألمانيا بعد سنة ١٩٤٥م إلى قسمين : شرقي تحت النفوذ السوفييتي وتأسست به جمهورية ألمانيا الديموقراطية الشيوعية، وغربي وتأسست به جمهورية المانيا الاتحادية. وقد تحولت الجامعات القديمة في جمهورية المانيا الديموقراطية مثل بينا ولايبريغ إلى مراكز لبث التعاليم الشيوعية وأصبحت مكتباتها قسماً من نظام عام يهدف لخدمة البحث الشيوعي والعقيدة الشيوعية. وقد صودرت أول الأمر من هذه المكتبات الكتب المناهضة للشيوعية، ثم بدأت تتدفق عليها سيول الكتب الشيوعية.

وأصبح لمكتبات هذه الجامعات مكانتها بين المكتبات، على الأقل في عدد الكتب

الموجودة فيها، فقد بلغ عدد الكتب الموجودة في ست من كبريات مكتبات جامعات المانيا الشرقية أكثر من عشرة ملايين مجلد، وأضخم مجموعة موجودة في مكتبة جامعة لايبريغ وذلك في السبعينات من هذا القرن.

ولقد ازدهرت مكتبات الجامعات في ألمانيا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد تأسس في برلين الغربية جامعة جديدة وصل عدد كتبها أكثر من مليون كتاب في وقتنا الحاضر. كما وصل عدد كتب مكتبة فرانكفورت إلى أكثر من مليون ونصف المليون من الكتب. ولقد شيدت أبنية صممت لتكون مكتبة جامعية على أحدث طراز مثل جامعات بون وبرلين الغربية ومينز. وقد بلغ عدد الكتب الموجودة في مكتبات ثمان عشرة جامعة رئيسية من جامعات ألمانيا الغربية أكثر من ٢٥ مليون كتاب. وواجهت الألمان مشكلات كثيرة في تنظيم هذه الكتب في المكتبات وكيفية التعويض عن الخسائر وفي كيفية إعداد المكتبيين المتخصصين وغير ذلك من المشكلات.

لقد كانت مكتبات الجامعات الألمانية المركزية، عبر العصور، مراكز للبحث أكثر منها قاعات مطالعة للطلاب. كذلك كان امناء المكتبات الجامعية الألمانية باحثين وعلماء أكثر منهم إداريين أو متخصصين في الخدمة المكتبية. وقد نشأت مشكلات معقدة عن هذا الوضع : منها ضعف وسوء الفهرسة وضعف الإدارة وعدم وجود فهرس وطني موحد أو سياسة مكتبية موحدة، أضف إلى ذلك الرقابة الصارمة التي فرضتها المانيا الشرقية على المكتبات والمطبوعات. ومع ذلك فإن تقدم المكتبات الجامعية مستمر وستحتل مكانتها السابقة في عالم المكتبات.

تطور وتاريخ المكتبات الجامعية في روسيا :

إن قصة الجامعات في روسيا ومكتباتها تختلف عن مثيلاتها في غربي أوروبا، ذلك أن روسيا ظلت حتى القرن السابع لا أكثر من تعبير جغرافي، وحضارتها هزيلة والإقطاعية متفشية فيها. وقد تمكن بعض الأباطرة من أمثال بطرس الأكبر وكاترين الثانية من إدخالها في الحضارة الأوروبية . ولقد تأخر ظهور الجامعات في روسيا حتى القرن الثامن عشر، وعندما بدأ القوم يؤسسونها كان نموها بطيئاً وعددها قليلاً حتى نشوب الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧م حيث أصبح نموها سريعاً جداً وتطورها متسارعاً، وزاد عددها كل الزيادة واتسعت كل الاتساع. وتشكل جامعاتها ومكتبات الجامعات فيها قسماً مهماً وأساسياً من

برنامج المكتبات العام في الاتحاد السوفيتي. إن أقدم جامعة في روسيا هي جامعة موسكو التي تأسست سنة ١٧٥٥م. وتأسس في القرن التاسع عشر عدد آخر من الجامعات في بطرسبورغ (لينينغراد الآن) وقازان وخاركوف وكييف وغيرها من البلدان.

كانت مكتبات هذه الجامعات أول الأمر هزيلة صغيرة، وكان هناك ، خلال القرن التاسع عشر مكتبات مركزية ومكتبات طلاب ومكتبات أقسام. ولقد نمت مكتبة جامعة موسكو بسرعة كبيرة واستلمت أكثر من مائة هبة، وقد ارتفع عدد كتبها من ١٥٠ ألف مجلد سنة ١٨٧٦م إلى أكثر من ٣٠٠ ألف مجلد سنة ١٩٠٠م، والشيء نفسه تم في بقية الجامعات. عند نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ كان في روسيا ١٣ جامعة رئيسية تحوي مكتباتها ٣ ملايين كتاب وعدد طلابها ٤٣ ألف طالب.

ولقد أحدثت الثورة الروسية الشيوعية تغيراً جذرياً في مكتبات الجامعات في روسيا، فقد أسست جامعات جديدة في جميع أنحاء الاتحاد السوفييتي، واغتنت مكتبات الجامعات بالكتب التي صودرت من الأديرة والكنائس والمعاهد الدينية والنبلاء الذين صودرت كتبهم عند نشوب الثورة. ولقد نمت مكتبات الجامعات الروسية بعد سنة ١٩٢٥م نمواً هائلاً في العدد والخدمات، وأصبح لها أهمية متزايدة في الحركة الثقافية والعلمية في الاتحاد السوفييتي. وقد صبغت جميع مؤسسات التعليم والثقافة في روسيا، ومن جملتها المكتبات الجامعية، بالصبغة الشيوعية الماركسية اللينينية، ولذا روقبت الكتب بصرامة ومنعت الكتب المناهضة للشيوعية. واستعملت مكتبات الجامعات مراكز أساسية للدعاية للمذهب الشيوعي ونشره وإذاعته بين الناس. وتعد الخدمة المكتبية في روسيا واحدة من أرقى وأكفأ الخدمات المكتبية في العالم. وتنفق الدولة بسخاء بالغ على هذه والمكتبات.

ولقد دمرت مكتبات الجامعات خلال الحرب العالمية الثانية في كل من روسيا البيضاء وأوكرانيا وموسكو ولينينغراد تدميراً تاماً أو أصيبت بأضرار بالغة، فمثلاً دمرت جامعة الدولة في لينينغراد تدميراً تاماً أثناء الصراع بين الألمان والروس من أجل احتلال المدينة. والشيء نفسه حصل لجامعات كييف وخاركوف ومنسك وغيرها. وقد أعيد بناء ما تهدم بعد الحرب وبني كثير غيرها. هذا وإن المجموعات الكتبية العلمية في مكتبات الجامعات رائعة جداً. وهناك تأكيد قوي متزايد على المنشورات التي تحوي الفلسفة الماركسية اللينينية في جميع المعاهد الروسية؛ بحيث نرى المنشورات الباحثة في هذه الموضوعات منتشرة في

كل مكان ومبذولة وحتى أنها إلزامية، وهناك نسخ كثيرة جداً من العمل الواحد.

وتمتلك جامعة موسكو في أيامنا هذه ما يقارب السبعة ملايين مجلد، منتشرة بين مكتبتها المركزية ومكتبات الأقسام، وتستلم أكثر من ألفي دورية، إلى جانب القسم الأكبر مما ينشر في روسيا، وفيها حوالي ٤٨ قاعة مطالعة منتشرة في جميع أرجاء الصرح الجامعي. وتعتبر جامعة موسكو من أضخم جامعات روسيا. وقد وضعت جميع مكتبات الجامعات تحت إدارة وزارة التعليم العالي التي تراقب وتسيطر وتوجه إدارة ما ينوف على ألف جامعة ومعهد وأكادمية في روسيا. وتتم عملية امتلاك المواد والفهرسة بشكل مركزي ناجح كل النجاح. وقد زود التخصص المكتبي المدعوم برقابة ببليوغرافية جيدة ونظام إعارة داخلي سهل بين الجامعات، الاتحاد السوفييتي بنظام مكتبي منظم بشكل جيد وناجح وأدى إلى ترقية الأبحاث وتنشيط عملية التربية والتعليم.

لقد نمت وتطورت مكتبات الجامعات الأوروبية تطوراً كبيراً جداً خلال الفترة التي بحثنا تاريخها هنا. فقد كانت في أصلها مجموعات صغرى من أجل دعم برامج ومناهج أكاديمية محددة، ولكنها أصبحت الآن تمثل «قلب الجامعة» وأصبحت الآن مجموعات خطط لها وصممت لتلعب دوراً رئيسياً في تحقيق أهداف الجامعات الحديثة المتمثلة في البحث الأصيل.

أصبحت الكتب عبر القرون، جاهزة للاستعمال ولم يعد يحرسها أمين المكتبة الحارس، وأصبح ينظر إليها على أنها أدوات وجدت لتستعمل لا لتخزن أو تحرس. وقد أدى هذا التطور إلى الاحتياج إلى أمناء مكتبات يصرفون وقتاً أطول في التعرف على مشكلات الأماكن والتنظيم. وقد أدى الضغط المتزايد في أوائل القرن العشرين من جانب رواد المكتبات الجامعية لإيجاد وسيلة أسرع للوصول إلى الكتب مباشرة، ونمو حجم الكتب، إلى ظهور فهرس البطاقات، كما وأن أنظمة التصنيف بدأت تدرس وتطبق. وشاهدت نهاية القرن التاسع عشر عدداً من التطورات الهامة ظهر أغلبها في الولايات المتحدة الأمريكية.

وهناك نقاط تشابه كبيرة ونقاط خلاف بين المكتبات الجامعية في أوروبا في النواحي التنظيمية والإدارية. وتختلف المكتبات الجامعية الأوروبية عن مثيلاتها الأمريكية، أكثر ما تختلف، بالاستقلال الذاتي الممنوح لمكتبات الكليات والأقسام فيها، وهي تحوي

مجموعات ثمينة متخصصة وفهرستها هزيلة وسيئة والخدمة المكتبية فيها عاجزة وقلما يعرفها بقية الطلاب والأساتذة في نفس الجامعة.

وتتبع هذه الجامعات أنظمة تصنيف محلية ثبت عجزها. ولكن بدأ أغلبها يأخذ بالأساليب الحديثة في الفهرسة والتصنيف. ومن مشكلات هذه المكتبات الرئيسية اليد العاملة الفنية المتخصصة ومشكلة انخفاض رواتب الموظفين المتخصصين في علم المكتبات. وقد تنبه القوم إلى أهمية التنظيم وإلى أهمية التخصص وهناك طلب متزايد على اليد الفنية المتخصصة، كما شرع في بناء عدد كبير من الأبنية صمم ليكون مقراً حديثاً فنياً لمكتبة جامعية. كما وقد انتشرت معاهد إعداد المكتبيين وبدأت تغذى الجامعات ومكتباتها بالمتخصصين في علم المكتبات.

وإن المكتبات الجامعية في أوروبا أصبحت منذ سنة ١٥٠٠م مراكز كبرى للبحث ويزداد هذا المركز أهمية مع تقدم الزمن، وهذا أدى ولا يزال يؤدي إلى المساهمة الفعالة في خدمة ونشر وزيادة المعرفة الإنسانية.

وقد تحملت مكتبات الجامعات الأوروبية منذ سنة ١٥٠٠م أعباءً أضخم مما تساعدها عليها إمكاناتها في حفظ وتنمية هذا التراث الثقافي. وعلى الرغم من أن المكتبات الوطنية، وفيما بعد المكتبات العامة، ساهمت في هذا المجال بعد فترة، إلا أن المكتبة الجامعية هي التي خدمت كمركز أساسي من مراكز البحث في جميع المجالات وعلى جميع المستويات، ولا تزال هذه هي مهمتها الأساسية ، وهو دور تاريخي وضع مسؤوليات متزايدة ومهمة على عاتق مكتبات الجامعات لمقابلة احتياجات البحث والباحثين.